

وأخيراً أظهرت براءته

قصة مصرية في رسالتين

(١) «من محمد إلى عبد المجيد»

٢٠ أبريل سنة ١٩٢٤

أخي العزيز عبد المجيد افندي !

ما كنت أظن أن في استطاعة الزمن أن يدور بنا هذه الدورة الفجائية العنيفة ، فيقلب كل شيء رأساً على عقب ، وتقلب حقائق الأشياء من النقيض إلى النقيض ! وما كان يدور بخلدی لحظة واحدة أن يسدد الدهر ذلك السهم الحثير المفلول الطائش فيحكم تسديده إحكاماً ، فيصيب من صداقتنا — بل من أخوتنا الوثيقة — مقتلًا أو يكاد : على أنني سأبذل كل مافي نفسي من قدرة ، وكل ما لدى من جهد ، في سبيل القضاء على هذه الحركة الطائشة الهوجاء التي يحاول بها هذا الدهر الأخرق المأفون أن ينير من قلبين ليس في مقدور أية قوة — في العالم كله — أن تغير من هواهما ، إلا إذا كان في حدود الامكان أن ينقسم القلب الواحد نصفين ، ثم يتغير كل منهما على الآخر فيصبحا عدوين : أخي ! لقد كنا كما يقول الشاعر :

موافين أهواء — توافت على هوى فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا

إذا مادعا منا خليل خليله « بأفديك » لباه جميعاً فأسمعنا

ولكن ! نعم ولكن يا أخي — ويجدر بي أن أصارحك أن الغيظ والحنق يتملكاني ، وأن الحيرة والدهشة تستوليان على نفسي استيلاءً ، ثم تغمرانني فتغرقان نفسي فيهما إغراقاً . أخي الوفي ! مضت ثلاثة أيام لم يهدأ لي في غضونها بال ، ولا استراح لي خاطر ، ماذا ؟ بل إنني لأرى الغيظ والحنق يمزقان نفسي تمزيقاً ، ولو أن في قدرتي أن أقول لك شيئاً لقلت : ولو أن في مقدوري الإفصاح عن تلك الخواج المبهمة الغامضة المتنافرة التي تيجش في نفسي لأفصحت عنها ، بل إن في مقدوري أن أفصح وأن أكلم فتقلب الأشياء ، وينجلي الباطل الحالك السواد ليحل به مكان الحق الساطع المنير ، ولكن أين سمعك وقلبك ، ومن لي بهما لحظة واحدة لأعيدك إلى رشدك ، آه لو أنك قادر على الاصغاء إلى ما أقول ، إصغاء حقاً لا أثر فيه للحياء والجمالة ، إذن لأزحت عن عينيك هذه الغشاوة ، وكشفت لك هذه الغيوم المتلبدة التي حجبت عنك كل حقيقة ، فخلوتها لك ناصعة لا تقبل الشك ؛ ولكن كيف أقول وكيف أصنع وقد قلت لك من قبل كلاماً كثيراً فلم تقبل مني كلمة واحدة ، ولك العذر في سوء ظنك ، فقد

أحكم التدبير وحبكت المؤامرة حبكاً متيناً، ولى العذر أيضاً فأنا أشهد فصول المأساة القاسية، وأراني - بكل أسف - بطل المأساة الذي يقوم بتمثيل أهم أدوارها .

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك
ألا فلتنق يا أخي أتى لم أسئ إليك، وأتت لم أقترف أى ذنب، ومعاذ الاخلاص أن أخونك
فى أعز شئ تملكه ، وكيف أخونك وأنت نفسى وأعز على من نفسى ؟ لقد أقسمت لك بمحرجات
الآيمان فلم أرك تزداد إلا ارتياباً ، فلا تحتمل منك هذا الشك القاتل فأنا أعرف
مصدره وأعلم أنك مخدوع، وأقدر ظروفك كلها حق قدرها ، وإنى لأخبر الناس بك ، بل أنا
أخبر بنفسك من نفسك ، أنت يا أخى على أكبر قسط من الدمارة ووفور العقل والذكاء والوفاء
والطهارة ، ولكن عيباً رئيسياً فيك - لاحيلة لى فى دفعه - وليس يضيرك هذا العيب ولكنه
يضير سواك ، فقد كدت أن أذهب ضحيته ، أنت ضعيف الحيلة يا أخى، وهذا وحده هو كل
عيبك ، فلو أنك تصطنع قليلاً من الاناة والحيلة لفهمت كل شئ ، ولكن أى شئ ، ليس
هناك أى شئ ، بل هناك شئ واحد، إذا فهمته أنت أصبح المتهم بريئاً والبرئ متهماً ، ولكن سوء
الظن هو الذى يدفعك إلى تصديق كل شئ متى رايت منه ما لا يريب أحداً سواك ممن يسرفون إسرافك
فى إساءة الظن . إنك يا أخى لتغضض عينيك إغماضاً وتصم أذنيك عن كل ما يجلو لك الحقيقة ،
بل إنك لتخلق الريبة خلقاً ثم تعتقدها اعتقاداً جازماً ، فكيف إذا حدثك بها شخص آخر ،
إنها لتصبح يقيناً لاسبيل إلى الطعن فيه ، سأصبر فليس لى حيلة غير الصبر، فان قلبى مطمئن إلى
ظهور براءتى - بعد قليل من الزمن أو كثير - كما كان قلبى يشعر من قبل أن كارثة تهدد صداقتنا
التي دامت أكثر من خمس وعشرين سنة .

وللنفس حالات تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد
يجب أن تعلم - وإن كان لاسبيل إلى إقناعك - أتى برئى ، وأتت أخلص لك وأسترخص
كل شئ فى سبيل صداقتك الغالية ، ولكن من لى بمن يقنعك أن الحقيقة كلها فى ذلك الجانب
الآخر الذى تأبى كل الالباء أن تمنحه نظرة واحدة تكشف لك كل الجوانب المستورة عنك
وتوصلك إلى الحقيقة من أقرب طريق ، فان أبيت إلا أن تنسكبها لم تصل إلى غير الوهم والضلال:
أخى ! ليكن كلام زوجك صادقاً لا يتسرب إليه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولتكن
صادقة فيما اختلقته لى من التهم التى صدقتها منها وأخذتها قضايا مسلمة، وقد مر على بها خمسة
عشر عاماً ، كانت التهمة فى أول هذه الأعوام أقرب إلى العقل والمنطق منها فى هذه الأيام ،
ولكن عدل الزمن كفيل بتبديد كل هذه الدياجى والظلمات الخالكة .
أخى ! لست أنتظر منك رداً على هذه الرسالة ولا أنا طامع فى شئ من ذلك ، وربما كان

في قدرتك أن تفند كل كلمة من كلامي إذا لجأت إلى أسلوب الجدل وربما هزئت بكل ما فيها من صدق وإخلاص إذا أصررت على إساءة الظن بي ؛ وبعد ، فاني أستودعك الله وأهمل في أذنك : إن الأيام ستثبت أنني أنبل مما تظن ، وأقول لك من أعماق قلبي إنني صاحبك الوفي المخلص : وإني أخوك الدائم العهد لم أخن إن ابراك خصم أو نبا بك منزل

محمد

— ٢ —

«من سامى إلى عبد المجيد»

١٤ يناير سنة ١٩٢٦ م

سيدى عبد المجيد افندى !

يجب أن أقول لك كل شيء ، فقد أرهقني تأنيب الضمير ، وأصبحت لا أستطيع - أينما ذهبت - أن أهرب من نذاتي - ولم أر مخلصاً من هذه الأزمات النفسية المتوالية إلا أن أفضى إليك بالحقيقة إفضاءً، لتعود الأشياء إلى أوضاعها الحقّة ، وتسميها بأسمائها الجديرة بها ، يجب أن تعلم أنني أنا الجرم الحقيقي وأن زوجك الوفية المخلصة الطاهرة هي شريكى في الاجرام ، أما صديقك محمد فهو برىء حقاً ، وهذا لا يكفى لانصافه ، فهو - إلى براءته وطهارته نفسه - نبيل عريق في النبيل :

يجب أن تعلم الحقيقة الواقعة ، وأن تنكشف عن عينيك هذه السحب التي طالما حجبته عنك هذه الحقيقة .

هل تذكر يا سيدى عبد المجيد يوم الاحد ١٩ إبريل سنة ١٩٢٤ ، لعلك لا تذكره ، ولكنى أذكرك به ، فقد كنت في ذلك اليوم تتلو على مسامع صديقك النبيل محمد أنفس بحث وفقت له في رسالتك التي كنت تقدمها لنيل الدكتوراه ، والتي أحرزت بها أعلى درجات الفوز في ذلك المضمار ، تذكر ذلك اليوم ، لقد كنت مشغولاً بمحادثة صديقك الوفي - ثم زارك جماعة من أصدقائك فقطعوا عليك هذا الحديث ، ثم ... ياللهول ... ما أشد تقرير الضمير يا سيدى الأخ ، ثم فتح الباب بغتة وإذا بصديقك محمد يدخل فيراى أقبل السيدة ، يالله ، لقد اختلستها قبلة آثمة ، وناوزوجك الطاهرة في مأمن من المباغته ، فقد كنا ننصت إلى حديثك فنطمئن من مباغتتك !

أما محمد فقد كان نبيلاً حقاً . وقد أدرك العلاقة الآثمة التي تربطنى بهذه الزوج الخائنة ، وقد كان في وسعه أن يتلأ الدنيا جلبة وأن ينتهز هذه الفرصة للاتصال بالزوج ، فقد ارتمت على قدميه وحاولت أن تقبله لترضيته ، فانتفض انتفاضة المذعور ونظر إليها نظرة الحائق المغيظ ، ثم خرج وانسلت أنا من الباب الآخر ، وتوقعنا الشر ؛ وخشيت السيدة أن يفتاحك محمد فيما حدث فأحكمت مؤامرتها الشريرة التي كانت سببا في قطع أواصر الصلات المتينة التي كانت تربطك به ؛ وكنت في هذه الفترة مأخوذاً بنشوة الظفر ، فلم أصغ إلى تقرير ضميرى ، ثم أفقت بعد

ردح من الزمن ، غفشت أن أعكر صفواً يسود البيت ، فلما علمت بحادث أمس جئتكم بهذه الرسالة الجريئة لأفوض إليكم بكل شيء :

لقد علمت أنك طردتها من بيتك بعد أن فاجأتها مع صديقك الجديد زكى أفندى فى حال مريبة ، وعلمت من الخادم أن هذا الحادث قد أثار حفيظتك على صديقك القديم «محمد» وأنت ظلت تلعن اليوم الذى عرفته فيه ، لأنك حسبت أنه هو الذى بدأ باغراء السيدة الطاهرة ، وأنها أبت أن تصفى إلى إغرائه، ولكنها انتبعت بعد ذلك إلى طريق الغواية التى فتح بابها صديقك الوفى .

لاياسيدى، إن محمداً صديقك برىء ، أما أنا وزكى أفندى فقد كنا نمثل معك دور نذلين، وقد جازيناك إساءة باحسان ، فافغفرلى أو لاتغفر ، فقد أروضيت ضيرى ، وقد ارتحت لاتصالك عنها ، وأردت أن أشرح لك فصول المأساة التى كنا جريهاً أبطالها، لأنه يجب أن تعرف حقيقة هذه المأساة التى اشتركنا فى تمثيلها :

قل عنى- فى أسلوب صريح- إننى نذل خائن، كافر بالصدقة والوفاء ، فأنى راض بهذه النعوت التى أستحقها عن جدارة ، ولكنى لأحب لك أن تتخضع فتصف محمداً صديقك الوفى بها ؟
إننى أروضى أن تقول عنى ما تشاء، ولكنى أريد أن تعرف - بعد ذلك كله - أن صديقك محمداً كان بريئاً من كل ما نسب إليه ؟

ك . ك

واجبك .. هل أديته ؟

إنك ستؤديه بلا ريب ...

أيها الشباب المثقف !

إن مجلة «المعرفة» سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أخدموا طنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه مشجعاً له ولنيره .. على إحياء القومية المصرية

هكذا واجباكم فأدوه